الفصل الثالث

العنف عن بعد

كان لي لقاء غريب مع الموت عام 2003م، كان ذلك في أواخر مارس/ آذار، وقد بدأت الحرب في العراق حالًا. كنت على بعد مئات الأميال في الغرب، في أفغانستان، أُجري المزيد من البحوث لهيومان رايتس ووتش، كنا نعمل على قضية مزمنة، أمراء الحرب، ونسافر الى الجنوب الشرقي من كابول؛ لإجراء مقابلات مع مدنيين أفغان: مزارعين وسائقي شاحنات وأولياء أمور وطلاب. لكن متمردي طالبان الناشئين جددوا نشاطهم بإنتاجهم المتنامي المستمر للعنف في الصفوف الخلفية. وفي نهاية المطاف ذلك العنف وصل لي شخصيًّا، فبينما كنت جالسًا في السيارة في أحد شوارع مدينة غزني، أناقش العمل مع الزملاء، اقترب رجلان على دراجة نارية من الأمام، وتوقفا بمحاذاة نافذتي تمامًا خارج السيارة، فالرجل الذي يجلس في الخلف صوّب مسدسه إلى رأسي، ورفيقه، مع ذلك، عن طريق الخطأ وبالمصادفة داست قدمه على غيار سرعة الدراجة، فاندفع الاثنان إلى الأمام، وتجاوزا نافذتي، فضرب المسدس مرآة الرؤية الخلفية بجواري، واختل توازنهما، وعندما شاهدا أصحاب المتاجر يخرجون إلى الشارع وكذلك سائق سيارتنا الذي ترجل من السيارة (ربما كانا يعتقدان، أنه كان يحمل مسدسًا) استردا توازنهما، وانطلقا.

فاتني كل شيء، فطوال الوقت كنت غائبًا عن الحدث، وكنت قد استدرت من مقعدي للتحدث مع زميلتيّ في المقعد الخلفي: زاما كورسن- نيف والمترجمة الأفغانية معنا، وهي امرأة شابة تدعى سيتارا شريف. كل ما رأيته نظرة الذعر المفاجئة في وجه سيتارا، وجحوظ عيني زاما وتقطيبها جبينها، فلم أكن حتى قادرًا على قراءة تعبيرات وجهيهما بشكل صحيح: اعتقدت أنهما كانتا منزعجتين من شيء كنت أقوله، فقد كنت مرتبكًا، وخلال الوقت الذي استغرقته استدارتي، كان الرجلان قد اختفيا، فروت زاما، وسيتارا، والسائق، عبدالله، لي ما حدث. مواجهتي مع الموت وجهًا لوجه، وأنا متعجب، لم تكن حتى تجربة عملية. كانت مشهدًا من فيلم كرتون، كنت أشاهده وأنا صغير: كنت أنا الرجل العجوز، أعمى، غافلًا، في الغالب مصابًا بضربة من سندان يهوي، في الغالب أخطو من على حافة الهاوية، ولكن بدلًا من ذلك تلتقطني بسهولة طائرة هليكوبتر مارّة. من الغريب أن يقال لك: إنك كنت على وشك أن تُقتَل، ولكنك لم تَرَ ذلك بنفسك، ومن المؤكد أنها خففت من الآثار، وبعد الواقعة نادرًا ما فكرت فيها؛ لأنه، في الواقع، لم تكن هناك تجربة للتفكير فيها.

الذي رأى كل شيء، وتفهمه، وكان يخشى على حياته، فتأثر بعمق، هو عبدالله. وفي اليوم المقبل للحادث شرعنا في رحلة طويلة نعود إلى كابول، فقاد عبدالله بسرعة، وبعد أن دخلنا المدينة قال بصوت عالٍ:

«الحمد لله»، كل الشكر لك يا ألله، ثم اصطف بالسيارة على مقربة من مخبز، فشاهدناه يخرج مشتريًا حزمًا من الخبز الأفغاني، ويوزعه على المتسولين والأطفال من حولنا في عمل خيري شاكرًا الله على رحمته لعودتنا سالمين، وجلب عبدالله الرغيف المتبقي من الخبز، واقتطع منه لكل منا كسرة، كأنما كنا في العشاء الأخير، ثم رفع يديه إلى أعلى، وردد دعاء باللغة الفارسية، وكلنا فعلنا مثله، وعندما أنزل يديه رفعنا أيدينا فوق، ثم أنزلناها لما انتهى ماسحين على وجوهنا بها كما يفعل الأفغان في صلواتهم، أكلنا خبزنا، وحمدنا الله.

وفي الأيام التي أعقبت الحادثة أصبح مزاجي تهكميًّا وساخرًا، وشعرت بالرثاء لعبدالله، هذا الشاب الذي يجاهد لكسب لقمة العيش بنقله حفنة من الأجانب الحمقى هنا وهناك، وتصرفه مع الخبز هزني ببراءته الدينية. أتذكر نظرته الفرحة على وجهه، وهو يوزع الخبز، ووجوه النساء اللائي تناولنه منه.

من جهتي، أدهشتني غرابة قدري، فالناس الذين حاولوا قتلي لا يعرفونني، فقد كنت بالنسبة إليهم مجرد فكرة مجردة، أجنبي تتناسب شخصيته مع أهدافهم، ويجلس في سيارة لا تحمل علامات مميزة مع هاتف يعمل بالأقمار الاصطناعية، إذ كنت وكالة المخابرات المركزية بالنسبة إليهم، وهذا كل ما يعرفونه، ويعمل بالسر تحت غطاء صفته عامل إغاثة، ولقد أذهلني أن تكون قرارات طالبان تستهدف أناسًا بالخطأ، مثلما تفعل أيضًا قوات المخابرات الأمريكية التي تتبع طالبان والعرب بصفتهم (مقاتلين أعداء) وغالبًا ما تكون الأوصاف قائمة على معايير خاطئة (المقاتلين الأعداء): تم الخلط بين المقاتلين والقرويين، وسائقي سيارات الأجرة، والعاملين في المجال الإنساني ورجال الدين، فقد كانت هذه هي السمة المميزة للعنف في تلك الحقبة: يهاجمون الناس الخطأ على الدوام، سواء كان ذلك ناتجًا عن سوء فهم أو عن الاستخدام العشوائي للقوة، وعمال المطعم في مركز التجارة العالمي، والنساء والأطفال الأبرياء الذين مزقتهم القنابل العنقودية، وأصحاب المحالّ والأطفال الذين سقطوا قتلى من قِبَل الانتحاريين التفجيريين من طالبان أو تنظيم القاعدة، والعائلة التي تستقل حافلة صغيرة وتُقتَل بالرصاص عند نقطة تفتيش الناتو؛ لأن السائق لم يبطئ السرعة بالشكل الكافي من وجهة نظر من أطلقوا عليهم الرصاص.

دخنت الكثير من السجائر بعد أسبوع من الهجوم، أقتل نفسي ببطء بعد التهديد المباشر لحياتي، فقد سألني أحدهم في وقت لاحق إذا كنت أعاني الكوابيس؟ دون شك لا، فكيف يمكنك أن تخاف الموت عندما لا يتم حتى منحك فرصة له؟ الموت مخيف، وغير معروف، في كثير من الأحيان ومؤلم، ومرعب أن تواجهه في المجرد، ولكنك

عندما لا تحظى بالتجربة المباشرة، فلا شيء يحرك عواطفك. ليس هناك الكثير لنكون شاكرين. على أي حال، عندما يُطلَق النار على شخص في الجزء الخلفي من رأسه على حين غرة، أتصور أنه يعني ببساطة (إطفاء الأضواء)، فليس هناك الكثير من الألم لتخاف منه.

في مزاجي الكئيب، فكرة الشكر من أجل البقاء بدت غريبة على وجه الخصوص، ففكرت في لاعبي كرة القدم عند تسجيلهم هدفًا يشيرون إلى السماء أو يسجدون، فأحس بالاحتقار لفكرة أن مصادفة مع الموت قد تجعل شخصًا ما أقرب إلى الله. القول:

«لا يوجد ملحدون في الحفرة؛ أي الناس يؤمنون في وقت الخوف والحرب» تُردَّد كثيرًا في أعقاب هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، ليس من سكان نيويورك أو موظفي البنتاغون، بل أيضًا من خبراء التلفاز، وهم يتحدثون الى أمريكا ككل، كما لو أن مشاهدة هجمات 11 سبتمبر/ أيلول على شاشة التلفاز تشبه خبرة الجنود في الخنادق، وهم يستنجدون بقوة سماوية لإنقاذهم[1].

كان هناك شيء غريب عن الحادثة التي وقعت في غزني: طريقة الهجوم، وهو مسدس من مسافة قريبة، فهذه الطريقة كانت مألوفة، وبعد بضعة أشهر، بالضبط في الجزء نفسه من غزني، قُتِلت عاملة الأمم المتحدة الفرنسية بيتينا جويسلار في ظروف مماثلة: كانت تجلس في سيارتها، مثلما حدث معي، وفي التاسعة والعشرين من العمر (عمري في ذلك العام نفسه) اثنان من المسلحين من طالبان يستقلان دراجة نارية وبطلق ناري مباشر في الرأس، فهذه وسيلة حميمة جدًّا لقتل شخص ما، وتثير مسألة كيفية تكييف شروط العنف عن قرب.

سمة مهمة للحروب الحديثة والإرهاب، وهذا صحيح جزئيًّا في أفغانستان، هي أن معظم أعمال العنف تميل إلى أن تكون من على مسافة بعيدة، باستثناء تفجير الانتحاريين أنفسهم في الحشود. في الحرب الحديثة لم يعد هناك مجال للالتحام بالسلاح الأبيض.

أولئك الذين يتبادلون إطلاق النار بالبنادق والقنابل من كل جانب في الصراع نادرًا ما يعرفون ضحاياهم أو يتعرفون إليهم، فالجنود يَقتلون ويُقتلون من قِبل غرباء، وهم في كثير من الأحيان الناس الذين يتكلمون لغات مختلفة، الذين قد يبدون مختلفين أو لهم رائحة أو تصرف بشكل مختلف، والذين في جميع الاحتمالات لديهم نظرة مختلفة تمامًا للحياة أو الدين، وفي حالتي، كنت هدفًا شبه عشوائي: المسلحون لا يعرفونني. تم اختياري للموت؛ لأنني كنت أجنبيًّا فقط.

هل من الأسهل أن تقتل شخصًا غريبًا؟ ربما، على الرغم من أن إحصاءات عن العنف الإجرامي في كثير من المجتمعات تبين أن ضحايا الجريمة يقتلون عادة، ويشوهون، أو يغتصبون من قِبل أشخاص يعرفونهم: المعارف والجيران، والأصدقاء، أو العائلة، حتى في جرائم الإبادة الجماعية المحلية والمذابح، يحدث القتل في كثير من الأحيان على أساس الاسم الأول مع الضحايا وأسرهم. السؤال الأكثر عمقًا هو ما إذا كان من السهل القتل من مسافة قريبة. قريبة جدًّا، فلا يمكن أن يكون من السهل، حتى مع وجود شخص غريب. ليس لدي معرفة شخصية حول هذا الموضوع، بطبيعة الحال، لكن لي تجربة مع صيد الحيوانات، حتى هذه تبدو لتأكيد الفكرة، فقد أطلقت النار على بطة ذات مرة في أثناء الصيد في ولاية نيويورك: عندما اقتربت منها وجدتها على الأرض، حيث سقطت، كانت تحاول الابتعاد، ترفرف دون جدوى بجناحها الذي لم يُصب، عيناها تندفعان في كل اتجاه، فوضعت قدمي على عنقها، وضغطت بشدة لأخنقها؛ لتجنيبها ما بدا لي وكأنه معاناة، فقد كانت مجرد طائر، ولكنه أحدث رد فعل مادي غير طوعي في جسدي، وأنا أقتلها: لقد بدأ العرق يتصبب من جسدي على الرغم من أن الجو لم يكن حارًّا، شعرت بشيء من الغثيان، وفمي امتلأ باللعاب (الذي يحدث أحيانًا عندما يتذوق البشر النباتات شبه السامة، أو يعانون لدغ الثعابين). كان كما لو أن جسدي مس شيئًا خاطئًا، وقد وقع هذا، لمجرد قتل طير، وعلماء النفس وعلماء الإنثروبولوجيا والمؤرخون

وحتى المحاربون يبدو أنهم يتفقون على أن القتل صعب ومرهق، وأن فعل ذلك من مسافة قريبة، هو أكثر من ذلك، وصعب كما هي مواجهة الموت، فهي عملية مرعبة أيضًا للقاتل.

اللفتنانت كولونيل ديفيد غروسمان، هو أستاذ علم النفس السابق في الأكاديمية العسكرية في ويست بوينت، فقد كتب على نطاق واسع حول هذه الظاهرة، وكتابه عام 1995م (**في القتل**) يحتوي على مجموعة من الحكايات والقصص من بحوثه الخاصة ومن التاريخ العسكري ما يدلل على النفور الطبيعي من القتل حتى لدى الجنود المدربين، على وجه الخصوص القتل من مسافة قريبة[2]، فالجنود أنفسهم شرحوا أن القتل لا يأتي بسهولة، وغروسمان نقل كثيرًا من التجارب التي وصف بها الجنود الاشمئزاز الذي شعروا به: على سبيل المثال، أحد جنود مشاة البحرية البريطانية اقتحم كوخًا لقناص ياباني، وعثر على القناص عالقًا بالأسلاك، لكنه دار حوله، وأطلق النار عليه من مسدس عيار 0,45: «أستطيع أن أتذكر أني همست بحماقة»: «أنا آسف»، وبعدها تقيأت»[3] أحد جنود القبعات الخضر في فيتنام الذي قابله جون كيغان وريتشارد هولمز تحدث عن مقتل جندي فيتنامي شاب: «فتحت النار حالًا، وأطلقت عشرين طلقة في طفل، وما إن سقط قتيلًا هناك حتى ألقيت بسلاحي على الأرض، وأجهشت بالبكاء»[4]، وفي عدد كبير من الروايات قصص، يتذكر الجنود كيف تقيؤوا بعد القتل.

الروايات قصص أكثر تعبيرًا عن القتل (عن قرب) هي القتل اليدوي، عندما يلتحم الخصمان بالسلاح الأبيض، ويصف غروسمان جندي مشاة من الحرب العالمية الثانية الذي قاتل جنديًّا يابانيًّا في حفرة. الجندي الأمريكي في نهاية المطاف يطعن الرجل صغير الحجم، ويجز رقبته، ثم يراقبه وهو ينزف بالقرب منه حتى يموت. وفقًا لغروسمان، كان رجل المشاة قد قتل مرات عدة خلال الحرب، ولكن هذه الحالة، التي قاتل فيها بالسلاح الأبيض عدوًّا، وأخذ ينظر إليه، وهو ينزف حتى الموت كانت الواقعة التي تسببت لي في كوابيس «مدة طويلة بعد انتهاء الحرب». «رعب الذكرى كان شيئًا لم يكن بوسعي احتماله حتى يومنا هذا»[5]. وملخص آخر موجز للصدمة يأتي من رقيب في

القوات الخاصة الأمريكية في حرب فيتنام: «عندما تصبح قريبًا جدًّا وبشكل شخصي، وتغرغر بمضغة تبغ يجترها تحت خده، حيث يمكنك سماعهم يصرخون، وتراهم يموتون، وهنا بصق التبغ للتأكيد أنه مخزٍ»[6].

ويوضح غروسمان أن علم وظائف الأعضاء البشرية، لم يصمم للقتل، وتحدث مع القاتلين ردود فعل حشوية وفسيولوجية: التعرق الغزير، واللعاب، والغثيان. ويمكن أن يعانوا منها. على الرغم من كثير من المناقشات التي تفترض أن ما بعد الصدمة النفسية عند المحاربين القدامى يأتي من الضغط في مواجهة الخطر أو من رؤية رفاق السلاح يقتلون، وبالنسبة إلى كثير من قدامى المحاربين يمكن أن يكون القتل مسببًا للصدمات: مشكلات الصحة العقلية تظهر ليس فقط بين الجنود الذين عانوا المواجهات القريبة مع الموت، ولكن أيضًا بين أولئك الذين قتلوا، أو جرحوا آخرين. جوناثان شاي، الطبيب النفسي الذي عمل على نطاق واسع مع قدامى المحاربين في الولايات المتحدة، صاغ مصطلح (الضرر المعنوي) لوصف التأثير[7]. دوغلاس برير عقيد آخر في الجيش، كتب عن الضرر المعنوي في سياق الانتشار العسكري الأمريكي منذ عام 2001م، مشيرًا إلى ارتباطات بين مشكلات الصحة العقلية لقدامى المحاربين ومشاركتهم في الماضي في انتهاكات أو جرائم مشكوك فيها، حتى تفاصيل عدة لحالات الانتحار بين المخضرمين العسكريين تظهر أنها جرت نتيجة الشعور بالذنب أو الخجل من المشاركة في السلوك المشين[8]، ويبدو أن بعض الناس قادرون على التكيف مع استخدام العنف ضد الآخرين، ولكن الكثيرين لا يتكيفون.

وقد وثقت آثار ضارة بالصحة النفسية بين الشرطة ومكاتب الاستخبارات، والجنود الذين شاركوا في تعذيب المعتقلين، والصحفي جوشوا فيليبس في كتاب بعنوان: (**لا أحد منا كان هكذا من قبل**) **نشر عام** 2010م، يورد تفاصيل مجموعة مقلقة من حالات الانتحار ضمن وحدة عسكرية متورطة في التعذيب في العراق بين عامي 2003 و2004م: كثير من أعضاء الوحدة الأحياء، تحدثوا لفيليبس عن الآثار النفسية التي تكبدوها من

المشاركة في إساءة معاملة السجناء[9]، فالتعذيب ألحق بنا في كثير من النواحي ما هو أكثر صعوبة مما أسفر عنه القتل، حيث إن عملية إلحاق الأذى والألم تستمر على مدى مدة طويلة من الزمن.

بدأت أفهم هذه الآثار النفسية، عندما قابلت قدامى المحاربين من الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق حول حوادث التعذيب التي شاركوا فيها: إن الرجال عانوا بشكل واضح من هذه التجربة، وأذكر على وجه الخصوص ضابط مخابرات من الذين خدموا في العراق واصفًا كيف أن العراقيين في قاعدة قرب الموصل بدوا (مجوفين). قال لي: «لا أستطيع أن أنسى كيف بدا هؤلاء الرجال»، وأضاف: «هذا سيبقى معي إلى الأبد».

داريوس ريجالي، عالم اجتماع، ومؤلف كتاب (**التعذيب والديمقراطية**)، وهو كتاب موسوعي عن تاريخ التعذيب، يجد علاقة بين قصص التعذيب من قِبل الشرطة والتعذيب العسكري في البرازيل، واليونان، وشيلي وأوروغواي بين الذين يعانون الاكتئاب والقلق والتوتر الناجم عن «مستويات سامة من الشعور بالذنب والعار» أو مشاعر الخيانة من قِبل حكوماتهم، التي، على الرغم من إجازتها أو الاستفادة من سلوكهم غير القانوني، تميل على المدى الطويل إلى منع التعذيب، وترى فيهم «مرضى اجتماعيًّا، أو يفتقرون إلى الانضباط أو (القيم الأخلاقية). ويكتب ريجالي عن جلاد الشرطة المخضرم في اليونان الذي يستيقظ عادة، وهو يصرخ، وغالبًا ما يبكي علنًا، وفي إحدى المرات قال وهو يصيح: «من أكون؟ أنا وحش»، ونقل ريجالي عن جلاد الشرطة البرازيلية قوله[10]: «نحن ورق تواليت المجتمع».

وفي رواية ريجالي لفرانز فانون، الطبيب النفسي والمفكر الماركسي الذي عالج المعذِّبين الفرنسيين في أثناء الحرب الجزائرية في خمسينيات القرن الماضي، أكد الكثير من تلك الآثار، وفي مذكراته، (**المعذَّبون في الأرض**)، حيث يصف فانون كيف أن

أحد المرضى لديه، وهو ضابط في الجيش الفرنسي، وبعد عمله عشر ساعات في تعذيب المشتبه فيهم في المركز الأمني الذي يعمل به، كان سرعان ما يفقد أعصابه مع أولاده في البيت، ويضرب طفله الرضيع، وذات مرة قام بالهجوم على زوجته. الضابط كتب فانون، فهم صراحة أن النتائج كانت هي (الآثار الجانبية) من عمله، وطلب المساعدة الطبية من فانون للقضاء على هذه الآثار الجانبية، -حتى يستمر على نحو فاعل في تعذيب المشتبه فيهم. وفي مثال آخر، فانون يصف لقاء واحد من مرضاه، وهو ضابط شرطة، وجده واقفًا في الشارع، ويرتجف، ويتصبب عرقًا في منتصف نوبة صدمة، ويبدو أنه رأى واحدًا من ضحاياه السابقين[11].

قد نستنتج أن جزءًا من الإجهاد الذي يعانيه أولئك الذين يمارسون العنف هو بسبب الأعراف الثقافية الحديثة. البشر اليوم غير معتادين على الكم الكبير من العنف والموت، مثل لنقُل: شعب الهون الذين عاشوا في السهوب. القتلة والجلادون الحديثون يعانون أكثر من السابقين بسبب الخلاف الكبير بين حياتنا الاجتماعية العادية وأنشطتنا العنيفة، وربما هذه الفكرة تتجاوب مع حجج ستيفن بينكر، الذي في كتابه (**الملائكة الأفضل لطبيعتنا** يرى أن العنف غدا أقل شيوعًا مع القوة المتزايدة للحكومات وسيادة القانون، ومع نمو وتوسيع نطاق التجارة والتعليم[12]، لكن حتى بينكر يعترف أنه على الرغم من أن المجتمع البشري قد غدا أكثر تحضرًا، فالبشر بوصفهم نوعًا ليسوا كذلك، فالتطور لا يعمل بهذه السرعة.

يكتب الناقد الأدبي ليونيل تريلنغ في مقدمة لقصص إسحاق بابل (**الفرسان الحمر**)، كيف يمكن مقارنة العنف الوحشي لدى القوزاق في روسيا وشرق أوروبا في أوائل القرن العشرين مع أشكال أكثر دهاء من العنف في الغرب الحديث، حيث استخدام العنف، في الأماكن التي لا يزال العنف فيها سائدًا، أصبح مقيدًا أكثر، ويقول تريلنغ: «الدافع إلى العنف يبدو فطريًّا في جميع البشر، لكن هذا الدافع يبدو بين فئات معينة شائعًا بحرية أكثر بكثير من غيرها»[13]. في البداية هذا يبدو وكأنه استشراق، أي

الشرق من حيث هو فوضوي وعنيف، ولكن نقطة تريلنج ليست للمقارنة بين المجتمعات، ولا تشير إلى الخصائص الوراثية الملازمة، ولكنه لاحظ أن الوحشية تلقي بظلالها على كل المجتمعات، حتى تلك التي، لأي سبب من الأسباب مهما يكن، عنيفة للغاية. في الواقع، كان هدف بابل من قصص وحشية (**الفرسان الحمر**) التفكير في التوترات داخل العنف لدى القوزاق، ليظهر في النهاية، أن إراقة الدماء لم تكن حيوانية. على العكس من ذلك، سفك الدماء يهز العواطف، ويؤثر في الناس، إنه يؤثر في بابل نفسه. إنه يؤثر في الجميع. وعلى الرغم من عدم تصنيفه تحت كلمة (العنف)، فإن مساحات شاسعة من المؤلفات تدور حول موضوع العنف وجذوره وآثاره: نصوص قديمة من الشرق إلى الغرب، وعلم النفس وعلم الجريمة وعلم الإنسان. وهناك أعمال فلسفية: **التنين، والأمير، وفن الحرب** كلها ترتبط بشكل دائم بالحرب وسياسة العنف. كونفوشيوس، وجان جاك روسو، وديفيد هيوم تأملوا حالة الطبيعة البشرية الأصلية، وحاولوا فهم أصول حمل البشر للسلاح. إيمانويل كانط في مقالته القصيرة الشهيرة (التخمين في أصول التاريخ البشري) ناقش لماذا قتل قابيل هابيل. وكتاب فرويد (**الطوطم والتابو**) في كثير من النواحي هو كتاب عن أصول العدوان البشري، ومارغريت ميد في (**بلوغ سن الرشد في ساموا**) تثير القضية من خلال دراسة مجتمع لا يبدو العدوان موجودًا به.

وبدوره، تطرق الأدب الروائي لموضوع العنف، بشكل أو بآخر، لآلاف السنين، واعترف فرويد أن الموضوعات الرئيسة في علم النفس، التي كان العدوان البشري فيها له أهمية قصوى، قد عولجت أولًا وآخرًا في الروايات، ومن ثم جاء استخدام قصة (**أوديب**) لسوفوكليس، لغز جريمة قتل كان حلها عن طريق القاتل، لاستجلاء نظرية واحدة مركزية (جذور العدوان في سياق الأسرة الواحدة) وكذلك استخدام أعمال دوستويفسكي لمناقشة الجريمة. قال فرويد للكاتب النمساوي ستيفان تسفايغ: إن «الشعراء والفلاسفة قبلي اكتشفوا اللاوعي»، وبطبيعة الحال كان محقًّا: من النصوص القديمة لهوميروس وفياسا إلى أعمال ستندال وبروست، ومن شعراء التانغ الصينيين إلى دانتي وبوكاتشيو،

كان الأدب يتولى صياغة أعماق دوافع الإنسان للعنف – والشعور بالذنب أو العار عند الانخراط في ذلك – قبل مدة طويلة من مجيء العلم أو علم النفس إلى الساحة[14]. في معايير الكتابة الغربية، تشمل الأمثلة دوستويفسكي في (**الإخوة كارامازوف**) و(**الجريمة والعقاب**)، و(**ماكبث**) شكسبير، و(**يوليوس قيصر**)، و(**هاملت**). وقد تشمل أيضًا **تيتوس أندرونيكوس**، الأكثر عنفًا والأكثر وضوحًا من مسرحيات شكسبير، وكوينتين تارانتينو، مثل مهرجان دم مع مجموعة كبيرة من الأيدي المبتورة وقتلة الثأر انتقامًا، من مشهد مغتصبي ابنة تيتوس الذين قطعوا لسانها ويديها، إلى المشهد الأخير، الوليمة، الذي يقتل فيه تيتوس ابنته المشوهة، ويكشف لزوجة الإمبراطور أن الطبق الرئيس يتكون من لحم ولديها الاثنين، ثم يقتل زوجة الإمبراطور ليُقتل على يد الإمبراطور، الذي بدوره يتم قتله على يد ابن تيتوس.

أما بالنسبة إلى النصوص الغربية القديمة التي تستكشف العنف، فإن المرشح الأوفر حظًّا هو على الأرجح **إلياذة** هوميروس، مع سبرها لأغوار غضب أخيل، لكنني أفضل الموضوعات الكامنة وراء أريستوفانيس في (**ليسيستراتا**)، وهي كوميديا بذيئة عن النساء في أثينا وإسبارطة، اللواتي يقمن بالتخطيط لحجب الجنس عن الرجال في مدنهن؛ لإجبارهم على إنهاء الحرب البيلوبونيز بطريقتهن الخاصة، فإن (**ليسيستراتا**) تقدم تشريحًا عميقًا للعنف والأسس النفسية له، إضافة إلى الكشف عن أن الكوميديا هي الخالدة عبر العصور، فالمسرحية تتميز بسقطات الحمقى التهريجية، والنكات عن الأوضاع الجنسية، النص يتناول موضوعًا خالدًا: العلاقة بين الجنسين والعنف، التي في سياق مناقشة أصول العنف، تكون دائمًا مشكلات لا يحب الناس الحديث عنها.

وبالفعل، فقد كان النوع الاجتماعي الجندر هو العقبة الدائمة. حقيقة واضحة حول العنف البشري هي أنه موجود أساسًا في المجال الذكوري: تاريخيًّا الرجال هم المحرضون ومرتكبو الحرب والنهب وجرائم العنف، لكنه سيكون من الخطأ أن نفترض أن العلم قد أوضح هذه الحقيقة. في الواقع، نشأت نظريات متعددة، ولكن لم يثبت أي

منها قطعًا. أقوى البراهين على أن الرجال وراثيًّا أكثر عنفًا من النساء نجدها في بحوث تربط بمستويات الهرمون أو تركيبة الجمجمة مع السلوك العدواني، لكن النتائج بأي حال من الأحوال واضحة كما كنا قد توقعناها، وتشير بعض الأعمال الإنثروبولوجية إلى وجود صلة بين تقسيمات العمل في مجتمعات الصيد، وجمع الثمار، والزراعة، وتربية الأطفال، وهي الفروق التي تطورت منذ ذلك الحين إلى مفاهيم اجتماعية. لكن كثيرًا من هذه الاستنتاجات لا تزال مثيرة للجدل. هذا ربما كان السبب في نصوص مثل (**ليسيستراتا**) الماثلة حتى اليوم: يبدو أننا ما زلنا لا نعرف أي شيء عن الرجال والنساء والعنف. نحن بالكاد يبدو أننا نفهم العنف.

فقط منذ القرن التاسع عشر بدأت معالجة العدوان البشري بوصفه موضوعًا علميًّا، ففي سبعينيات القرن ما قبل الماضي، بدأت جذور العنف الفردي والعدوان الجماعي تحظى بالاهتمام في سياق علم الجريمة والعلوم الاجتماعية ذات الصلة التي كانت رائجة في ذلك الوقت: علم الفراسة والعلوم الروحية للامرئيات، وعلم النفس الجديد، وأشكال بدائية من علم الاجتماع والعلوم المعرفية. نسي العلم اليوم الكثير من الزائف منها: هناك رفوف من الكتابات 150 عامًا من النظريات الزائفة تحتل رفوف المكتبات، لم يمسسها أحد. زرت المكتبات، ورأيت الغبار يغطي تلك الكتب. الكثير ملئ بالتحيزات والاتجاهات القديمة أو المحتوى العنصري أو القومي. كان هذا صحيحًا ليس فقط فيما يتعلق بالمشتبه فيهم المعتادين، مثل علماء العصر النازي – علماء تحسين النسل، والأجناس وعلماء الأجناس في القرن التاسع عشر – يحاولون تصنيف البشر بحسب نسب الجمجمة، والعرق، ليس هذا وحسب بل أيضًا هناك نصوص من الجامعات المعتمدة. علماء فرنسيون من الحرب العالمية الأولى، على سبيل المثال، كتبوا عن (العدوان البروسي) وعلاقته برائحة القوات الألمانية، حتى في سبعينيات ذلك القرن علماء نفس أمريكيون من جامعات رابطة اللبلاب كانوا لا يزالون يدرسون خصائص (الوطنية) في شبه – قالب علمي، على سبيل المثال، العقلية الروسية أو نفسية الفيتكونغ.

وبعض الأعمال الأخيرة، مع ذلك، تحتوي على بحوث أكثر شرعية تستحق بعض الاهتمام، والعالم الألماني في سلوك الحيوان كونراد لورنز، على سبيل المثال، كان من بين أوائل العلماء في ربط السلوك البشري مع الغرائز (الإقليمية) أو المناطقية للحيوانات، وبطيور معينة بصورة خاصة. كتاب لورينز **في العدوان** افترض نظرية أن الحيوانات، ذكورًا وإناثًا، لديها (دافع) طبيعي أن تكون عدوانية ضد المعارضين، بما في ذلك أعضاء من فصيلتها نفسها[15]، ووفقًا للورينز، محرك العدوان محدود داخل الأنواع على ظاهرة (الخضوع أو الاستسلام)، حيث يستطيع أعضاء من النوع نفسه إيقاف دافع العدوانية في بعضهم الآخر عن طريق عرض علامة الخضوع أو التراجع. وبهذه الطريقة ينحسر معظم العنف قبل حدوثه فعلًا.

يرى كتاب لورينز أن صمام أمان الخضوع والتراجع عند البشر لم يعد فاعلًا نتيجة تكنولوجيا مبتكرات صناعة الأسلحة، التي أدت عاطفيًّا إلى (نأي) القاتل عن ضحيته. في استخدام الرماح أو المقلاع للقتل من مسافة بعيدة، لم يعطِ المعتدي ضحاياه فرصة ممارسة الاستسلام وتفعيل مفتاح الإغلاق لعدوان المهاجم. وبهذه الطريقة، تغير البشر من كونهم صيادين في اصطياد الأنواع الأخرى للعيش إلى قتلة نوعهم بالذات.

وفي السنوات اللاحقة، نتائج لورينز عن الحيوانات ظلت تُعدّ صالحة علميًّا، ولكن تقلص نفوذها لدى معرفة أنشطة لورينز خلال مرحلة لاحقة من الرايخ الثالث، عندما أصبح عضوًا في الحزب النازي، وخلال هذه الحقبة بعض كتاباته وردت بها ملاحظات وتقييمات وراثية وعرقية الخصائص. ليس من المستغرب، أن أدى ذلك إلى إقصائه من العلماء الأوروبيين الآخرين، بما في ذلك صديقه منذ مدة طويلة العالم الهولندي نيكو تنبرجن، الذي عمل معه على الملاحظات حول الطيور، ولكنه أُسِر من قِبل النازيين في الأربعينيات من القرن العشرين، وفي السنوات الأخيرة، جعل إنكار لورينز المتكرر، الذي كان يبدو جادًّا في نبذ أخطائه في زمن الحرب، المصالحة ممكنة بينه وبين تنبرجن، فتقاسما جائزة نوبل عام 1973م مع العالم كارل فون فريش.

أفكار لورينز انفجرت في وجه الإنثروبولوجيا التقليدية في منتصف القرن العشرين، وتجاهلت إلى حد كبير أو رفضت الأعمال التي درست العدوان والحرب، وتهربت من المدرسة السلوكية التي تربط الحيوانات بالبشر. الأشكال المبكرة من الإنثروبولوجيا الإثنوغرافية درست مظاهر الحرب في المجتمعات (البدائية)، لكن المدارس اللاحقة، التي بقيت متقاطعة كما فعلت مع الداروينية الاجتماعية، وجدال الفطرة الطبيعية مقابل التنشئة، تولت بدلًا من ذلك قضايا مثل الأسرة، والقبائل، والهوية، والمحرمات، والخرافات. وكثير من علماء الإنثروبولوجيا في منتصف القرن عالجوا الحرب والعدوان البشري على أساس الآثار الجانبية للديناميات الاجتماعية. الحرب هي «مجرد اختراع فقط»، كتبت مارغريت ميد عام 1964م.

تحول المد في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث بدأ عدد متزايد من علماء الإنثروبولوجيا دراسة الحرب بوصفها موضوعًا[16]، ويناقش جون كيغان في **تاريخ الحروب**، وبعد عقد الستينيات شرع علماء الإنثروبولوجيا الجدد يتناولون بعض نظريات لورينز لاستكشاف ديناميات (مجموعة الصيد) ودور الرجل في قيادة هذه المجموعات، وتشير هذه النظريات، إلى حدود الدور الابتدائي للرجل في المجتمع البشري.

ظهرت بحوث مثيرة للاهتمام، بعضها أعاد إلى الأذهان صحة أفكار لورينز الأساسية حول العدوان والخضوع، وتناولت دراسات جديدة الحرب في المجتمعات البدائية ما قبل الحديثة، مثل يانومامي في منطقة الأمازون، وتحدثت البحوث على الماوري من بولينيزيا والزولو في جنوب إفريقيا عن وجود مختلف أشكال العنف الطقوسية أو احتفالات حرب (وهمية)؛ أي بمعنى صنع حرب ذات طابع مسرحي في بعض الأحيان (لطم الصدر، عرض للقوة، ما يمكن أن نسميه هز سيف المبارزة أو الحرب النفسية)، التي قد يثبت فيها الجانب الأقوى تفوقه دون الانخراط فعليًّا في أعمال عنف.

وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الناس في الثقافات ما قبل الحديثة المعزولة والمميزة في بعض الحالات تقاسمت الأشكال الكامنة وراء تكتيكات تجنب الصراع، المشابهة لمهاجمة الحيوانات وديناميات -الخضوع التراجع التي حددتها دراسات لورنز، التي كشفت أن بعض ثقافات صناعة الحروب كان تكن الاشمئزاز تجاه آثار العنف. قد يتطلب الاستعداد للعدوان في مثل هذه المجموعات وضع مراسم أو ابتلاع المثيرات العقلية، ويلاحظ كيغان أن بعض علماء الإنثروبولوجيا اقترحوا وضع خط فاصل بين (البدائية) والحداثة (أفق عسكري) بين الثقافات: تلك التي لا تزال تمارس في الطقوس القبلية مقابل تلك التي انتقلت إلى ما بعد طقوس تجنب الصراع، بدلًا من تدريب الجيوش على الهزيمة الماحقة للأعداء.

وفي نهاية المطاف، لم يثبت علميًّا سوى القليل عن العنف بوصفه ظاهرة إنسانية، ولا يزال من الحكمة عدم التعميم. وهذا ينطبق بشكل خاص على الإنثروبولوجيا وعلى وجه الخصوص على دراسات مجموعات اجتماعية محددة. ومع ذلك، لا يمكن القول: إن أي ثقافة، (ما قبل الحداثة) أو معزولة، يمكن أن تعطينا فكرة عن أصول الإنسان النقية.

لكن كثيرًا من الأعمال أعلاه تقدم أدلة على أن الحرب والعدوان ليست ظواهر تبزغ ببساطة من حقائق التكنولوجيا أو الثقافة، بل الأحرى يبدو أن العنف نتاج تفاعلات معقدة بين الثقافات والتصرفات البيولوجية غير السوية، التي تعقدت من ظاهرة تغيّر المجتمعات مع مرور الوقت، أو الثقافات العسكرية التي وجدت ضمن الثقافات، وأصبحت مهيمنة. (كيغان تحدث عن المماليك في مصر بوصفهم مثالًا، والطبقة العسكرية البروسية في أوائل القرن العشرين بوصفهم مثالًا آخر).

قد يكون لورينز على حق أننا نمتلك الاشمئزاز للعنف. إلى جانب الحقائق الاجتماعية والتاريخية، والظروف النفسية التي فصلها اللفتنانت كولونيل غروسمان عن

اشمئزاز الجنود من القتل، فالدليل يمكن العثور عليه أيضًا حتى في تاريخ التكنولوجيا العسكرية نفسها – الأسلحة.

بعد كل هذا وذاك، فإن كل تاريخ العنف البشري والأسلحة على وجه الخصوص يمكن وصفها بأنها تطور للمحاولات التكنولوجية على يد الجناة ليكونوا أبعد وأبعد عن ضحاياهم، الذي يشير على الأقل جزئيًّا إلى نفور من القتل وجهًا لوجه، من المقلاع والسهام قبل آلاف السنين إلى الصواريخ الباليستية والطائرات من دون طيار في عصرنا الحالي، والجهود المبذولة لتطوير التكنولوجيا العسكرية تركز بشكل كبير على هذا الهدف، حتى استخدام الخيول، الذي يُعدُّ تقدمًا عسكريًّا كبيرًا، هو بصورة خاصة محاولة لإيجاد مسافة – على الأقل مسافة عمودية – من الضحايا.

وكانت هناك استثناءات ملحوظة، ولا سيما في السياق الأوروبي: الطريقة اليونانية في الحرب، التي تم نقلها إلى عصر الفروسية، شددت على فضائل المعركة القريبة والانقضاض على العدو، للقائه وجهًا لوجه، وحتى مع التقدم التكنولوجي العسكري لا يزال المقاتلون يتدربون – لسبب وجيه – على القتال وعلى الالتحام بالسلاح الأبيض. (وحتى يومنا هذا، يتدرب مشاة البحرية الأمريكية على استخدام الحراب، على الرغم من الدراسات التي تبين أن هذه الأسلحة نادرًا ما استخدمت بنجاح في المعارك[17]. بصورة عامة، ومع ذلك، فإن التفضيل المعنوي للقتال المتلاحم اختفى بعد العصور الوسطى، ولم يستمر إلا رمزيًّا فقط على شكل المبارزة، سواء بالسيوف أو بالبنادق، وهي ممارسة، لأسباب سياسية واجتماعية معقدة، استمرت في أوروبا حتى أوائل القرن العشرين. وكان الاتجاه الأكبر في التاريخ العسكري نحو اكتساب مسافة أو على الأقل اختصار الوقت بين الجانبين المتقابلين الذي يكون فيه القتال في مواقع قريبة.

جزء من جاذبية المسافة هو، بطبيعة الحال، السلامة التي تتيحها، فمن الأسهل والأكثر أمانًا أن تقتل من بعيد، فلا شك أنه أكثر أمنًا وأسهل أن تقتل بالتسديد من

المدفعية منه بالسهم، وحتى أكثر أمنًا وأسهل الضغط على زر لإطلاق صواريخ كروز أو صاروخ عابر للقارات، ولكن شهية المحارب للمسافة لا يمكن تفسيرها ببساطة على أنها شهية للسلامة، والصحيح أنه أيضًا مع كل خطوة بعيدًا عن الضحية، فإن بعض الضغط النفسي الناجم عن القتل يصبح أقل. وإن الظواهر المادية أو الحسية التي تسبب القلق مرأى الدم، وأصوات الألم، وقوة الحياة، وهي تترك الجسد، ويصبح الإحساس بها أو رؤيتها أو سماعها أقل، ومع الحرمان الحسي تأتي اللامبالاة تجاه الضحية، وهذا بدوره يسمح بمزيد من القسوة، وهي صفة ممتازة بالنسبة إلى الذين يسعون للانتصار في معركة.

ومع ذلك، من بداية تطوير أسلحة المسافة، استمرت المشكلة التكنولوجية: صعوبة **الهدف**، فكلما صار الرمح على مسافة أبعد، قلت سيطرة المحارب عليه، ومن الصعب أن ترمى صخرة بدقة، ومن الصعب أن تصنع السهام التي تحلق بصورة صحيحة، ولا يزال أكثر صعوبة حساب المنحنيات القطعية المكافئة للمنجنيق أو قطعة المدفعية، والتحدي المتمثل في القتل بدقة، والسيطرة على الآثار الجانبية للأسلحة من مسافة، ظل التحدي الأساسي عبر التاريخ، سواء لضباط المدفعية المدربين أو للعصابات الفقيرة من المتمردين. فضابط المدفعية عليه معايرة هدفه لتجنب قتل المدنيين القريبين أو لتجنب هدر قذائف المدفعية، في حين أن المتمردين قد يسعون لاستخدام المدى الطويل بدقة لتجنب كشفهم؛ لأن خصومهم يفوقونهم عددًا. وعلى مدى قرون، أبقت تحديات الهدف المحاربين بالقرب من بعضهم، ولم يحدث إلا في الآونة الأخيرة فقط، في القرن الماضي أو نحو ذلك، أن بدأ التغلب على تحدي الهدف من الناحية التكنولوجية، وأصبح السعي العسكري لمسافة أبعد غير محدود.

شملت التطورات الحديثة المدفعية وصواريخ الميدان، والطائرات، وفي الآونة الأخيرة، صواريخ طويلة المدى والمركبات الجوية غير المأهولة، أو الطائرات من دون طيار، التي يمكن السيطرة عليها من قبل المشغلين على الجانب الآخر من العالم، ولقد

وصلت البشرية في القرن الحادي والعشرين النقطة التي تستطيع فيها بعض أفضل الجيوش تجهيزًا خوض الحروب عن بعد من قارة أخرى: الجندي يمكن أن يقتل من دون أخطار، دون خوف، ودون الكثير من المدخلات الحسية من المشهد الذي يحدث فيه القتل، ويظل الندم والاشمئزاز هو ما يصنعه بخياله.

الظاهر أن لورينز فهم الأمر بطريقة صحيحة، إذ يبدو أن الناس ليسوا مبرمجين للعنف المنفلت بلا قيود. الأصول التاريخية والإنثروبولوجية للعنف قد تكون معقدة للغاية لكي نفهمها، ولكن يبدو واضحًا أنه في معظم المجتمعات البشرية والثقافات، حتى في وسط الصراع، فإن الناس يفضلون تجنب العنف.

على الرغم من كل هذا، فالناس تقتل في كثير من الأحيان، ومن مواقع قريبة. في عملي في هيومان رايتس ووتش، فإنني كثيرًا ما جمعت قصصًا عن مثل هذه العمليات من القتل: في عمليات شغب غوجارات في الهند عام 2002م، على سبيل المثال، التي شرع بها الغوغاء القوميون الهندوس بقتل المسلمين الهنود ومهاجمتهم من بيت إلى بيت ومن باب إلى باب، ما أسفر عن مقتل رجل وصبي من مسافة قريبة بالسيوف والحراب واغتصاب النساء والفتيات، وتمزيق الجثث وحرقها[18]. أو بعد عشر سنوات، ابتداء من يونيه/ حزيران 2012م، اندلعت موجة من أعمال العنف في ولاية أراكان غرب بورما التي نفذ بها الأراكانيون البوذيون العرقيون مذابح ضد مسلمي الروهينغيا، وهاجموا الضحايا بالسيوف، وزجوا بهم في أتون النيران، وأُحرِق في هذه العملية آلاف المنازل، بما في ذلك الحي الإسلامي كله من مدينة الولاية الشمالية، سيتوي[19]. قداس العنف من هذا النوع يحدث في كل مكان بشكل روتيني في جميع أنحاء العالم. كيف يطاوع الناس أنفسهم القيام بذلك؟

ربما لضحالة التفكير، ففي مقال بعنوان (صعوبة تخيل أشخاص آخرين) تقول إلين سكاري : إن العنف متمكن بسبب محدودية قدرة الإنسان على تصور محنة الآخرين.

وتوضح: «إن قدرة الإنسان على إيذاء الآخرين كانت دائمًا أكبر بكثير من قدرته على تخيل أشخاص آخرين، قدرة الإنسان على جرح الآخرين كبيرة جدًّا على وجه التحديد بسبب أن قدرتنا على تصور الآخرين صغيرة جدًّا[20]، وهنا ربما نصل إلى جوهر المسألة. رجل يوجه سلاحًا إلى رأسك، وعلى الرغم من كل العوامل الإنسانية التي تجعل ذلك صعبًا، لأنه على اقتناع تام لسبب ما أن جريمة القتل في حاجة لأن تنفذ، ويتعين عليه القيام بها، ولم يتوقف قليلًا للنظر في البدائل، أو في التناقضات في قناعاته، أو في وجهة نظر الضحية.

لسوء الحظ، على الرغم من ذلك، في المخيلة الشعبية غالبًا ما يُعتقد أن الحل للكراهية العرقية هو في التعليم: فكلما عرف المزيد من الناس عن حقوق الإنسان والثقافات الأخرى، قل حدوث عنف لا معنى له، فمن السهل تبني هذه الفكرة – تثقيف الناس بأن يكونوا أكثر عالمية – وخاصة إذا ما وضعناها جنبًا إلى جنب مع الشوفينية والقومية الطائشة.

ولكن من وجهة نظر أولئك الذين يقومون بالدراسات والبحوث حول انتهاكات حقوق الإنسان في العالم الحقيقي، تبدو الفكرة ساذجة أو أكاديمية، فإذا وضعنا جانبًا القضايا التربوية عما إذا كان التعليم حتى في التعاطف ممكنًا، فإن معظم الباحثين في مجال الحقوق سوف يقلبون القضية رأسًا على عقب، وسوف يوضحون أن كثيرًا من جناة انتهاك حقوق الإنسان لديهم تعاطف: تعاطف مع جنسهم، وتعاطف مع أولئك الذين يعتقدون أنهم يشبهونهم أو غير ذلك يستحقون الاحترام. الجناة قد يؤمنون حتى بـ (حقوق الإنسان) من نوع ما: حقوق الإنسان من شعبهم وحلفائهم، ويرجح كثير من المنتهكين رؤية ضحاياهم بوصفهم أعداء للخير، ولا يستحقون الحماية القانونية أو هم غير شرعيين. وإلا فكيف يمكننا أن نبرر ما يقوله نشطاء حقوقيون يتحدثون في بورما عن الأقليات المسلمة في روهينغيا بوصفهم (أجانب) ينبغي أن يوضعوا في معسكرات الاعتقال؟[21]. وإلا فكيف يمكننا أن نفسر الساسة الأمريكيين المعتدلين، المكرسين

للديمقراطية في الداخل والخارج، متحدثين عن مجموعات الإرهاب المتطرف بصفتهم لا يستحقون حماية حكم القانون؟

فكرة حقوق الإنسان يمكن بالفعل ليّ عنقها وقلبها رأسًا على عقب، وجعلها تبريرًا للعنف، فالعمومية الكامنة في تعريفها أُسقطت وكأنها تفاصيل لا تبعث على الارتياح. في الحالة الأكثر تطرفًا، يمكننا دراسة حالة أدولف هتلر، وهو يتحدث عن **حقوق** الأقلية الألمان في تشيكوسلوفاكيا عام 1938م أو دانزيغ عام 1939م أو إعلان ألمانيا الحرب على الولايات المتحدة في 11 ديسمبر/ كانون الأول 1941م، الذي تحدث فيه هتلر عن كيف أن ألمانيا «لا تحتاج إلى أعمال خيرية [من القوى الحليفة] ولكنها تطالب **بحقوقها**». أو كيف يمكننا أن ننظر إلى المجاهدين الأفغان، وبعضهم ندد بحقوق الإنسان بعد عام 2001م بوصفها قيمًا غربية، ولكنهم دافعوا عن مسألة الحقوق في الثمانينيات على سبيل المثال، عندما كتب قلب الدين حكمتيار عام 1985م:

«السلوك السوفييتي في أفغانستان يسخر من ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان والقانون الدولي وقواعد السلوك المتحضر»[22]. من السهل أن تصبح ساخرًا عندما تنتقد الدعوات التاريخية لحقوق الإنسان، فشبح الدوافع الخفية يلوح في العلن، وقد كتب نيتشه، مناقشًا (إغراء) العدالة في كتاب (**إنساني ومفرط في إنسانيته**): «إن المطالبة بالمساواة في الحقوق، كما يفعل الاشتراكيون من الطبقات المقهورة، لم ينتج عن العدالة بل عن الطمع. إذا أظهر شخص ما لوحش قطعًا دموية من اللحوم عن قرب، وبعد ذلك سحب هذه القطع من اللحم بعيدًا مرة أخرى إلى أن يزمجر أخيرًا، فهل تعتقد أن هذه الزمجرة تعني العدالة؟».

الحقوق والعدالة غالبًا ما كانت اللافتات التي ادّعت الأنظمة الفاسدة الشرعية بناء عليها. منذ قرون عدة ادعت الأنظمة الاستبدادية أنها (جمهوريات) وعقدت البرلمانات، في محاولة لاحتضان عباءة المساواة. حتى في المكتب السياسي في الاتحاد السوفييتي،

في ظل حكم ستالين، صدر دستور سوفييتي جديد في عقد الثلاثينيات، الذي، على الرغم من أن النظام لم يكن لديه نية لإعلاء بنوده، يكفل حرية التعبير والصحافة والتجمع، وهناك أمثلة عدة في التاريخ – من الماجناكارتا إلى **البيريسترويكا** – لصكوك الحقوق التي كانت تقدم مكافأة من قِبَل الحكام المستبدين على وجه التحديد بوصفها حلًّا وسطًا للاحتفاظ بالسلطة. ديفيد غريس، المؤرخ الدانماركي المحافظ، أشار إلى أن كثيرًا من التطورات في الحرية في تاريخ البشرية حدثت في المقام الأول «لأنها تخدم مصالح السلطة»[23].

عدم الطهارة موجودة حتى بين الناشطين في مجال حقوق الإنسان: الاهتمام غير المتناسب في قضايا معينة، والتشويهات، والتعاطف مع مجموعات معينة على حساب مجموعات أخرى. مثلًا، أظهر نشطاء الحقوق قليلًا من الاهتمام لمواطني صربيا تحت القصف خلال التدخل في كوسوفو عام 1999م، فمن السهل جدًّا التركيز على حقوق مجموعة واحدة على حساب مجموعة أخرى، حتى في حالات التدخل الإنساني، فالحقوق يسهل استدعاؤها دائمًا، عندما نستبعد الجانب العام منها، ونركز على فئة معينة من الضحايا.

وفي نهاية المطاف، المشكلة في الدفاع عن الحقوق هي أن معظم منتهكي حقوق الإنسان لا ينظرون لأعدائهم على أنهم جديرون بالاحترام وحماية القانون. على العكس من ذلك، فإن كثيرًا من الجناة يَعدّون أنفسهم ضحايا الانتهاكات التي ارتكبها أعداؤهم، وحدد الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي هذه القضايا في خطاب ألقاه عام 1993م، ومقال بعنوان (حقوق الإنسان، والعقلانية، والعاطفة)[24]. ويتمثل التحدي في صميم حقوق الإنسان ليس من أجل حل مسألة فلسفية حول لماذا يجب أن يكون شخص ما في التزام أخلاقي تجاه الآخر، هكذا جادل رورتي. المشكلة ليست مجادلة أولئك الذين يرون أشخاصًا معينين دون البشر وإقناعهم بأن ما يرونه شبه آدمي هو ليس كذلك. رورتي استدعى نقد نيتشه للفلسفة الأخلاقية التقليدية وفكرة المساواة، مشيرًا إلى أن

الخرافة التشريعية للمساواة في ظل القانون تبدو في بعض الأحيان مثل خدعة عقلية لُعبت من قِبل الأضعف، مغيرة القيم لتحويل قوة سادتهم بحكم الأمر الواقع إلى مسؤولية أخلاقية. بدلًا من ذلك ينبغي أن يُنظر إلى المسألة من وجهة نظر الجناة: «لماذا يجب أن أهتم بشخص غريب، شخص ليس قريبي، وعاداته بالنسبة إلي مثيرة للاشمئزاز؟» رورتي يوضح: «الجواب التقليدي عن السؤال الأخير هو أن القرابة والعرف ليست ذات صلة أخلاقيًّا، ولا علاقة لها بالالتزامات التي يفرضها الاعتراف بالعضوية في النوع نفسه»، ثم يفسر رورتي لماذا الجواب غير مقنع.

هذا لم يكن أبدًا مقنعًا جدًّا؛ لأنه يطرح السؤال في المسألة المثارة: ما إذا كانت مجرد عضوية الأنواع هي، في الواقع، بديلًا كافيًا لقرابة أوثق. علاوة على ذلك، فإن هذا الجواب يترك المرء منفتحًا على الرد السريع المحبط لنيتشه: هذه الفكرة تعميمية،ربما خطرت فقط ببال عبد أو ربما عقل مثقف، أو كاهن يعتمد تقديره لذاته ووسيلة عيشه على جعلنا نقبل مفارقة مقدسة غير قابلة للنقاش، والطعن والتحدي.

معنى المفارقة المقدسة أن جميع البشر متساوون، على الرغم من أنهم من وجهات نظر مختلفة وعملية ليسوا متساوين.

فكرة رورتي – فكرة ثورية – هي أن البشرية لا تحتاج إلى الأساس الفلسفي لمنظومة حقوق الإنسان. بدلًا من ذلك، فإنها تحتاج إلى حملة دفاع مستمرة وعملية لتعزيز التعاطف وجعل الجناة المحتملين يشعرون نحو ضحاياهم بشكل مختلف:

الجواب الأفضل إلى حد ما عن [سؤال: لماذا ينبغي للمرء أن يهتم بالغريب؟] هو قصة عاطفية حزينة، وطويلة تبدأ «لأن هذا هو ما يبدو عليه أن تكون في مثل حالتها، وأن يكون المرء بعيدًا عن الوطن، بين الغرباء»، أو «لأنها قد تصبح كنتك» أو «لأن والدتها حزينة عليها/ عليه».

مثل هذه القصص، متكررة ومتنوعة على مر القرون، وقد حثتنا، نحن الناس الأغنياء الأقوياء الآمنين، على التسامح، وحتى أن نعتني به/ بها، وبالناس الضعفاء؛ الناس الذين مظهرهم أو عاداتهم أو معتقداتهم في البداية بدت إهانة لهويتنا المعنوية الخاصة، وإحساسنا بحدود الاختلاف البشري المسموح به.

العاملون في مجال حقوق الإنسان، في إطار تحليل رورتي، مروجو (عاطفة) عملهم يتكون من جهد لجعل الجناة وعملائهم يشعرون بالرثاء للضحايا. العاملون في مجال حقوق الإنسان يروون قصصًا حزينة، أو يلتقطون صورًا حزينة، لاستدرار العاطفة.

هل هذا الأسلوب ناجح؟

في معظم الوقت، لا. فالعاطفة لا تناسب عصر الإرهاب الحديث ومكافحة الإرهاب وأشكال العنف المصاحبة لهما، والكثير من أعمال العنف تتم عن مسافة كبيرة جسديًّا وعاطفيًّا، فزعيم المتمردين، على سبيل المثال، يجند الانتحاري التفجيري، ويرسله لتنفيذ الهجوم، ثم ينتظر تقارير، وهو في مركز بعيد، بينما ينفذ المجند الضعيف ربما المهمة الأولى والوحيدة المكلف بها، فإنه لمن الصعب جعل قادة المتمردين يكترثون بالمدنيين الذين تقتلهم أفعالهم، فهم يبقون أنفسهم على مسافة عاطفية من التفاصيل: إنهم يقاتلون، على أي حال، نيابة عن السكان المدنيين جميعًا. وفي الوقت نفسه، يجلس القادة العسكريون، ورجال المخابرات، الذين يشرفون على عمليات مكافحة الإرهاب أو مكافحة التمرد، في قواعد محصنة، وأحيانًا في قارة أخرى، ويشنون هجمات على مجمعات لا يرونها إلا من الجو فقط. وهكذا، إذا كان الهدف الأساسي من العمل في مجال حقوق الإنسان هو جمع القصص وسردها لتوليد التعاطف، فإن هذه الجهود تفشل في العادة، فما يتبقى هو مهمة جمع الأدلة للسجل التاريخي، على أمل أنها ستستخدم لمساءلة مرتكبي الانتهاكات عن أفعالهم.

حجة رورتي تفشل أيضًا في الإجابة عن الأسئلة الكبرى، وهي: لماذا الناس حريصون جدًّا على العثور على الأسس الفلسفية للنظم الأخلاقية في المقام الأول؟ وماذا يعني أن نفعل ذلك؟ ولكن ربما تساعد حجته على تفسير السبب الذي يضطرنا إلى تسجيل قصص وروايتها – عادة إنسانية تخترق كل عصر وفي كل ثقافة تقريبًا في جميع أنحاء العالم. جمع القصص هو ما كنت أفعله عندما وضع ذاك المسلح من طالبان في غزني مسدسًا في رأسي، وكاد يقتلني. هل كان ذلك المسلح يعرب عن أسفه على تصرفاته لو أنه عرف أنني لست جاسوسًا، ولكنني عامل في مجال حقوق الإنسان، وداعية، ومحامٍ، ومهرب مشاعر؟ أم أنني كنت، دعنا نقول: مجرد صبي، أو الأخ الأصغر القلق، أو أبًا في المستقبل يعتني بأبنائه؟ أود أن أعتقد ذلك.

* * *